
التناص والإبداع، فن المعارضة نموذجاً الأخطل يعارض زهير بن أبي سلمى

Intertextualité et création

L'exemple de la mu'āraḍa : al-Aḥṭal imitateur de Zuhayr b. Abī Sulmā

Intertextuality and Creation

The Example of Mu'āraḍa: al-Aḥṭal Imitator of Zuhayr b. Abī Sulmā

محمد باخوش



Édition électronique

URL : <https://journals.openedition.org/beo/578>

DOI : 10.4000/beo.578

ISBN : 978-2-35159-335-6

ISSN : 2077-4079

Éditeur

Presses de l'Institut français du Proche-Orient

Édition imprimée

Date de publication : 1 mai 2012

Pagination : 21-44

ISBN : 978-2-35159-193-2

ISSN : 0253-1623

Référence électronique

« التناص والإبداع، فن المعارضة نموذجاً », *Bulletin d'études orientales* [En ligne], Tome LX | mai 2012, mis en ligne le 31 mai 2012, consulté le 14 septembre 2023. URL : <http://journals.openedition.org/beo/578> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/beo.578>

التناص والإبداع، فن المعارضة نموذجاً الأخطل يعارض زهير بن أبي سلمى

محمد باخوش
جامعة بروفانس، إيرمام

« فإذا قيل إن المعاني المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك
بما ذكرته والصحيح أن باب الابتداء للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة. »
أبو العباس ثعلب (٨١٥-٩٠٤)

مقدمة

- قصيدة للأخطل (ت ٧١٠ م) يعارض فيها زهير بن أبي سلمى (ت ٦٠٩ م)

يعتبر الأخطل من رواد فن المديح في العصر الأموي، ويزخر ديوانه بمدائح رائعة نظمها تعظيماً
للخلفاء والأمراء الأمويين وقد حظيت هذه المدائح بقبولهم فأغدقوا العطاء عليه وأشادوا به، وذهب
الأمر بالخليفة عبد الملك بن مروان إلى التصريح بأن الأخطل شاعر بني أمية.
ولقد مدح الأخطل أخا الخليفة عبد الملك بشر بن مروان وأحد ولاته على العراق بخمس
قصائد، من بينها قصيدة استهلها بهذا البيت [من الطويل]:

١- صَحَا الْقَلْبُ عَنْ أَرَوَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعَادَ لَهُ مِنْ حُبِّ أَرَوَى أَخَابِلُهُ

وكتب محقق وناشر ديوان الأخطل، الأب أنطون صالحاني في الهامش (d) في الصفحة ٥٨
معلقاً على هذا البيت: « أخذ الأخطل هذا المطلع من مطلع زهير [من الطويل]:

١- صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعُزِّي أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

وفي البيت الخامس من هذه القصيدة يقول الأخطل:

٥- وَأَدَّتْ إِلَيْنَا عَهْدَهَا أُمُّ مَعْمَرٍ فَقَدْ جَعَلَتْنَا كَالْخَلِيطِ نُزَايِلُهُ

وكتعليق على هذا البيت يكتب صالحاني (في الهامش (c)، في الصفحة ٥٩):
« قال زهير "كان الشباب كالخليط نزايله" وفي شرح ديوانه: "وقوله كالخليط جعل الشباب
حين ولّى وفارق بمنزلة الخليط المفارق والخليط صاحب المخالط والمزايلة المفارقة". »

ويكتفي صالحاني بهذين التعليقين حاصراً العلاقة بين قصيدتي الشاعرين في هذين البيتين . لكن رجوع القارئ إلى قصيدة زهير بن أبي سلمى^١ يجعله يكتشف أن الأخطل لم يأخذ من قصيدة زهير هذين الشطرين فقط، بل استمد منها أكثر من ذلك . الغريب في الأمر^٢ أن صالحاني لم يشر إلى باقي الاقتباسات بالرغم من ارتفاع عددها . هل هذا راجع إلى سهو منه أو لعدم انتباهه لأهمية وكثرة اقتباسات الأخطل من قصيدة زهير؟ من الصعب علينا أن نجيب عن هذا السؤال . على كل حال لم يشر صالحاني في تعليقه إلى أن الأخطل يعارض زهير بن أبي سلمى، كما فعلت ذلك كارين صادر في أول هامش وضعت له هذه القصيدة في الصفحة ٢٢٣ من ديوان الأخطل الذي نشرته بدار صادر سنة ١٩٩٩^٣ .

إذن لا يتعلق الأمر هنا باقتباسين محصورين، بل باقتباسات عدّة قام بها الأخطل في إطار معارضته لقصيدة من قصائد أحد أكبر الشعراء العرب : زهير بن أبي سلمى . لتتوقف لحظة عند مصطلح المعارضة قبل أن نشرع في دراسة العلاقة بين القصيدتين وطبيعتها .

— المعارضة: تعريف أحمد الشايب

في سياق التعريف بالمناقضة ينتقل أحمد الشايب بالكلام إلى موضوع المعارضة فيقول: « هذه الصورة الاصطلاحية للمناقضة تذكرنا بصورة أخرى شبيهة بها هي (المعارضة) من عارضه في السير إذا سار حيا له وحاذاه، وعارضه بمثل ما صنع أي أتى بمثل ما أتى به، وفعل مثل ما فعل، وهذه المسألة عروض هذه أي نظيرها، ومعارض الكلام ومعارضه كلام يشبه بعضه بعضاً والمعارضة المباشرة، هذه خلاصة المعنى اللغوي [لسان العرب] وهو حسي أولاً في السير والعمل، ومعنوي في القول ونحوه .

والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها،

١ . زهير بن أبي سلمى، « شرح ديوان زهير بن أبي سلمى »، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: حنا نصر الحتي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢ .

٢ . نستغرب هنا لأن صالحاني انتبه مثلاً إلى أن القصيدة التي يستهلها الأخطل بقوله:
بانت سعاد في العينين مملول من حُبها وصحيح الجسم مخبول
معارضة لقصيدة كعب بن زهير الشهيرة ويذكر ذلك في الهامش . انظر الهامش (a) في الصفحة ١٢ من « شعر الأخطل » تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩١ .

٣ . الأخطل، « ديوان الأخطل »، تقديم وشرح كارين صادر، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩ .
لا نجد أية إشارة إلى علاقة هذه القصيدة بقصيدة زهير بن أبي سلمى في ديوان الأخطل الذي سهر على نشره فخر الدين قباوة . انظر: « شعر الأخطل »، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٦ (الطبعة الرابعة) .

وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصاً على ما يتعلق بالأول في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يعرض لهجائه أو سبّه، ودون أن يكون فخره علانية؛ فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى تبلغها في الجمال الفني أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليق، أو جمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة [...]، فالمعارض يقف من صاحبه موقف المقلد المعجب، أو المعترف ببراعته على كل حال، ومُناط المعارضة هو الجانب الفني وحسن الأداء [...]، ولا يلزم أن يكون المتعارضان متعاصرين بخلاف المناقضة في ذلك، وإن اتفقا في وحدة البحر والقافية ثم الموضوع غالباً، وفي أنهما فنا المنافسة والمباراة بوجه عام^٤.

تعريف أحمد الشايب جد مهم ومفيد أوضح فيه ما يربط القصيدتين في هذا الفن من وحدة في الموضوع والبحر والقافية، وأشار إلى إعجاب الشاعر المعارض بالقصيدة النموذج وإلى حرصه على نظم قصيدة تضاهي النموذج أو تفوقه براعة وجمالاً، كما نبّه الباحث في تعريفه إلى مختلف مظاهر الفرق بين النقيضة والمعارضة ومن بينها أن تكون قصيدة الشاعر المعارض خالية من الهجاء والفخر الصريح؛ إلا أنه لم يذكر بوضوح ظاهرة الاقتباس التي نجدها في الفنين معاً: النقائض والمعارضة. فعملياً الشاعر المعارض يقتبس أكثر من معنى ومن مفردة من القصيدة التي يعارضها ونرى هنا أن أحمد الشايب لم يعرض في تعريفه لهذا الجانب.

فعندما نقرأ قصيدتين تكون ثانيتهما معارضة للأولى، يتبين لنا بأن الشاعر الثاني لا يكتفي باستعمال نفس البحر ونفس القافية كما أنه لا يقتصر على معالجة نفس الموضوع والتطرق لنفس المعاني، بل نراه يقتبس بين الفينة والأخرى مفردات وعبارات من القصيدة النموذج. وهكذا يمكن القول بأن التنصص الذي يجمع بين القصيدتين يشمل الموضوع والمعاني والوزن والقافية وصيغ التعبير معاً.

والسؤال الذي يخالج أذهاننا بعد هذا التعريف وهذه الإضافة هو: هل يتنافى الإبداع مع التنصص؟ سنحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراسة بعض أوجه العلاقة بين قصيدة الأخطل وقصيدة زهير.

تقديم وجيز للقصيدتين

١- تتكون قصيدة زهير بن أبي سلمى من الأجزاء التالية:

— النسيب (من البيت ١ إلى البيت ٧)

— وصف الفرس ومشهد الصيد (من البيت ٨ إلى البيت ٢٩)

٤. أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٨ (الطبعة الثالثة)،

- فخر شخصي (من البيت ٣٠ إلى البيت ٣٣)
 - المديح (من البيت ٣٤ إلى البيت ٤٥)
 - ٢— تتكون قصيدة الأخطل من الأجزاء التالية:
 - النسب (من البيت ١ إلى البيت ٨)
 - الرحيل، مع مقارنة الجمل بالحمار الوحشي (من البيت ٩ إلى البيت ٣١)
 - المديح (من البيت ٣٢ إلى البيت ٥٠)
- ملاحظات :

— معارضة الأخطل أطول من نموذجها.

— القصيدتان في المديح وتربطهما وحدة البحر ووحدة القافية.

— تضمّن قصيدة زهير أربعة أبيات في الفخر، ولا يتطرق الأخطل لموضوع الفخر، كما يمكننا أن نلاحظ ذلك؛ لكنه في نفس الوقت يضيف في نهاية قصيدته أربعة أبيات يشتكي فيها من سوء وضعيته. لدينا إذا حذف وإضافة ينتج عنهما ما يسمّى ج. جونيت في كتابه *Palimpsestes* «التطريسات» بالاستبدال [substitution]. وهذا يعني أن هناك اختلافاً بين قصيدة الأخطل ونموذجها.

— المعارضة والنقد الأدبي الحديث

يدخل فن المعارضة في ما أسماه ج. جونيت بالتعلق النصي أو التجاوز النصي (hypertextualité) ويقصد الباحث الفرنسي بهذا المصطلح العلاقة التي تربط بين النص (ب) كنص لاحق (hypertexte) والنص (أ) كنص سابق (hypotexte) وهي علاقة تقليد أو محاكاة أو تحويل.

ففي معارضتنا هذه تشكل قصيدة الأخطل النص اللاحق (hypertexte) وتمثل قصيدة زهير النص السابق (hypotexte).

لنر الآن ما هي الاقتباسات التي قام بها الأخطل في معارضته هذه وما هي أنواعها.

إقتباسات الأخطل من قصيدة زهير نوعان:

يمثل النوع الأول مفردات تشكل قوافي عدد غير قليل من الأبيات. وسنعود فيما بعد للتعقيب على أهمية هذا النوع من الإقتباس.

أما النوع الثاني من الاقتباسات فيتكون من عبارات ومعان ومفردات ترد داخل شطري البيت. وهذه جداول جمعنا فيها ما اقتبس الأخطل من قواف وغيرها من قصيدة زهير.

٥ . انظر : Gérard Genette, *Palimpsestes. La littérature au second degré*, Paris, Seuil, 1982, p. 384.

٦ . انظر : Gérard Genette, *Palimpsestes. La littérature au second degré*, p. 13.

التعلق النصي

أ- في القوافي

– في النسب

البيت	قصيدة الأخطل : النص اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
٦	فأجاوله	٤	فأجاوله
٣	(كالخليط) نزايه	٥	(كالخليط) نزايه

– في الرحيل

البيت	قصيدة الأخطل : النص اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
١٧	أواصله	٩	نواصله
١١	كاهله	١٠	وكاهله
٢٧	فائله	١٢	وفائله
٢٤	وابله	١٨	وابله
١٦	وحلائله	٢١	وحلائله
١٠	أباجله	٢٤	أباجله
١٥	وجحافله	٢٧	وجحافله
١٠	أباجله	٣١	أباجله
١	ورواحله	٣٢	ورواحله

– في المديح

البيت	قصيدة الأخطل : النص اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
٣٨	ونائله	٣٣	نائله
٣	ما أزياله	٤٠	نزايه
٣٣	مقاتله	٤١	مقاتله
٢٥	هو حامله	٤٣	هو حامله
٢٢	شاغله	٤٥	شاغله
٤٥	وزلازله	٤٧	زلازله

ب- التعلق النصي في غير القوافي
- في النسب

البيت	قصيدة الأخطل : النص اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
١	صحا القلب عن أروى وأقصر باطله	١	صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
٣	عفا [...] منها	٥	عفا [...] منه
٧	رأت أن ريعان الشباب قد أنجلا وأن مشيبي حاضرتني عواجله	٤	فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شامله
٨	فأصبحت كوفيا	٩	صبحت بممسود ...

- في الرحيل

البيت	قصيدة الأخطل النص : اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
١١	أخي فقرة	١٤	بقفرة
١٢	طوى بطنه	١٥	ثلاث كأقواس السراء
١٤	جحافله	١٥	وجحافله
٢١	إذا اعتزها من بطن غيب تكشفت بروعاته جحشانه وحلائله	١٦	وقد خرّم الطراد عنه جحشانه فلم يبق إلا نفسه وحلائله
٢٢	طوى طي الملاء بطونها	١٥	ثلاث كأقواس السراء
٢٥	كأن اللواتي هن مكتنفاته قوى أندري أحكم الصنع فاتله	٩	صبحت بممسود النواشر
٢٧	حتى تمدّرت / بطين الزبي أرساغه وجحافله	١٥	وناشط / قد اخضرت من لس الغمير جحافله
٢٧	حتى تمدّرت / بطين الزبي أرساغه وجحافله	٢٨	مخضبة أرساغه وحوامله
٣١	ورسغ أمين لم تخنه أباجله	١٠	أمين شظاه لم يخرق صفاقه بمنقبة ولم تقطع أباجله

- في المديح

البيت	قصيدة الأخطل : النص اللاحق (hypertexte)	البيت	قصيدة زهير : النص السابق (hypotexte)
٣٣	إليك من الأغوار	٤٥	ومن أهله بالغور زالت زلازله
٣٤	ما تغبني / إذا جئته نعمائوه وفواضله	٣٤	يداه غمامة / على معتفيه ما تغب نوافله
٣٥	أخو الحرب	٤٢	ومن مثل حصن في الحروب

٤٢	ومن مثل حصن في الحروب	٣٧	أبحت حصون الأعجمين
٣٤	فياض	٣٩	إذا غاب عنا غاب عنا فراتنا وأن شهد أجدى فيضه وجداوله
٤٢	حصن (الممدوح)	٤٠	فإنك حصن
٤٣	أبى الضيم والنعمان يحرق نابه عليه أفضى والسيوف معاقله	٤٢	جزاء امرئ أفضى إلى الله قلبه
٤٢	ومن مثل حصن في الحروب ومثله لإنكار ضيم أو لأمر يحاوله	٤٣	فما كان مثله لكريهة ولا مستقل بالذي هو حامله
٣٩	تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله	٤٥ ٤٦	أغرّ عليه التاج... إذا انفرج الأبواب عنه رأيت كصدر اليماني أخلصته صياقله

- تعليق

– يقتبس الأخطل من قصيدة زهير مفردات وعبارات ومعاني عدة في أجزاء قصيدته الثلاثة.

– وجود هذه الاقتباسات يثبت العلاقة بين القصيدتين.

التعلق النصي في القوافي:

– اقتباس مفردة تكون قافية بيت من أبيات القصيدة النموذج يكتسي أهمية قصوى وذلك نظراً للدور الذي تلعبه القافية في القصيدة وكذلك لدورها في نظم البيت وصياغة معانيه عند الشعراء. ولقد أشار إلى ذلك الباحث جمال الدين بن الشيخ في كتابه «الشعرية العربية» في الباب الذي خصه للقافية^٧. وذكر الباحث في هذا الباب ما أورده ابن طباطبا العلوي (ت ٣٦٦ هـ / ٩٣٤ م) في كتابه «عيار الشعر» عندما تعرض للكلام عن النظم، إذ قال: «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَحْضُ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعدَّ له ما يُلبَّسُهُ إِيَّاهُ من الألفاظ التي تُطَابِقُهُ، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي سَلَسَ القَوْلَ عليه، فإذا اتَّفَقَ له بيتٌ يُشاكل المعنى الذي يَرُومُهُ أثَبَّتُهُ وأَعْمَلَ فكرَهُ في شُغْلِ القَوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تَنسيقٍ للشعر وترتيبٍ لفنون القول فيه [...]»^٨.

٧. انظر:

Jamal Eddine BENCHEIKH, *Poétique arabe, essai sur les voies d'une création*, Paris, Anthropos, 1975, p. 167, 168 et 169.

٨. أبو الحسين محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، كتاب عيار الشعر، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٥، ص ٧-٨. ولا يختلف رأي ابن الأثير عن رأي ابن طباطبا في هذا الموضوع، يكتب ابن الأثير (في باب الإحصاء، النوع الثامن والعشرون) في الصفحة ٢٩٦ من كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: «وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي أعدّها في نفسه فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته وذلك محمود الصنعة فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض [...]» (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القاهرة، بالمطبعة البهية، ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م).

الجملة التي يختم بها ابن طباطبا وصفه لعملية النظم، والتي يقول فيها إن الشاعر يُعمل « فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني » تبين بوضوح أهمية الدور الذي تلعبه القافية في هذه العملية.

وهذا يعني أن اقتباس الأخطل لقواف من قصيدة زهير سيكون له أثر بالغ على معاني قصيدته فوراء كل كلمة من الكلمات التي تكون القوافي المستعارة معنى أو موتيفاً أو موضوعاً لأبد للأخطل أن يتعامل معه في قصيدته بشكل أو بآخر. يجب أن نضع نصب أعيننا أن اقتباس القوافي ليس مجرد اقتباس لمفردات منعزلة؛ فوضعية هذه الكلمات الخاصة ووظيفتها وكذلك دورها في النظم تجعلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعان وأفكار أو موتيفات. لكن هذا لا يعني بأن الشاعر المقلد مقيد وأن عليه أن يلتزم باقتباس القافية والسياق الذي ترد فيه معاً. فعملياً له خياران: إما أن يقتبس القافية والمعاني المرتبطة بها ويأتي بهما في نفس السياق الذي يتضمنهما في القصيدة النموذج؛ وإما أن يكتفي باقتباس القافية ودمجها في سياق مخالف. وغالباً ما يرافق تغيير السياق تغيير في المعنى. قراءة سريعة لقصيدة الأخطل تبين أنه قام بهذين النوعين من الاقتباس. لنر في ما يلي كيف تعامل الشاعر مع كل منهما.

– يستعمل الأخطل كلمة « فأجاوله » وتعني الفضاءات الموجودة حول مكان ما في سياق حديثه عن الأماكن التي سكنتها حبيبته، والتي زارها بحثاً عنها كما فعل ذلك زهير بن أبي سلمى.

– في بعض الحالات يقوم الأخطل بتغيير السياق الذي وردت فيه المفردات والعبارات المقتبسة من القصيدة النموذج؛ فمثلاً:

– يستعمل كلا الشاعرين العبارة « كالخليط نزايله » في النسيب [الأخطل: البيت الخامس، زهير: البيت الثالث]، لكن زهيراً يعبر بها عن فوات الشباب وعن حتمية هذا الفوات؛ فشبه مرور زمن شبابه بتلك الضرورة التي تجبر الجيران والأحباب على الرحيل ومغادرة المكان الذي كانوا يعيشون فيه بجانب من ألفوهم وأحبوهم.

أما الأخطل فيوظف هذه العبارة لإثبات فراق حبيبته له، إذ يقول إن رحيل أمِّ معمر أجبره هو كذلك على مفارقة المنزل الذي تنزل به، فشبه فراقه لذلك المنزل بفراق الخليط لأحبائهم.

– يستعمل الأخطل الكلمة الثانية في هذه العبارة (الفعل « نزايله ») في المتكلم وفي صيغة النفي في البيت ٤٠ للتعبير عن تعلقه بممدوحه « وإنني / بأسباب حبل منكم ما أزايله . »

– يقتبس الأخطل في البيت التاسع من قصيدته الفعل « واصل يواصل ». هذا الفعل وارد في البيت السابع عشر من قصيدة زهير في صيغة الجمع « نواصله » ويعارض في الشطر الثاني لهذا البيت الفعل « نختله »^٩ (بمعنى نخدعه)، والفعل واصل مستعمل هنا بمعنى جاهر وكاشف وجاء الفعلان

٩. يستعمل زهير الفعل « ختل » في بيتين آخرين هما البيت ١٢ والبيت ٣٦.

في بيت يتطرق فيه الشاعر للطريقة التي سيستعملها الصيادون للتمكن من الصيد والبيت عبارة عن سؤال (لا جواب له) يطرحه أحد المشاركون في الصيد:

[١٧- وقال أميري: ما ترى رأي ما ترى أنختله عن نفسه أم نواصله ؟]

ينقل الأخطل هذا الفعل من سياق الصيد ويستعمله مع ضمير المتكلم في سرده لرحيله إلى ممدوحه. ينتج عن تغيير السياق هذا أو يرافقه تغيير في المعنى؛ إذ يعني هذا الفعل هنا متابعة السفر دون توقف:

[٩- فَسَوْفَ تُؤَدِّيْنَا مِنَ اللَّهِ ذِمَّةً وَإِلْحَاقُ تَهْجِيرٍ بَلِيلٍ أَوَاصِلُهُ]

— كذلك الأمر بالنسبة للقافية «ورواحله» استعملها زهير في سياق كلامه عن عزف نفسه عن الحب عندما يقول في عجز البيت الأول «وعزّي أفراس الصّبا ورواحله»، ونرى الأخطل يوظف هذه الكلمة في سرده لرحيله إلى بشر بن مروان في البيت ٣٢:

[٣٢- وَمُسْتَقْبِلٍ لَفَحِ الْحَرُورِ بِحَاجَةٍ إِلَيْكُمْ أَبَا مَرُوانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهُ]

— عدد كبير من المفردات (سبع كلمات بالضبط) التي تم استعمالها في قصيدة زهير لوصف الفرس وحمار الوحش (أربع كلمات من السبع المشار إليها أسماء لأعضاء جسمي الحيوانين) يوظفها الأخطل في قصة حمار الوحش لوصف هذا الحيوان؛ (انظر الجدول أعلاه).

فالكلمات «أباحله» (في البيت ١٠) و«كاهله» (البيت ١١) و«وابله» (البيت ٢٤) تدخل في وصف الفرس عند زهير، بينما نجده يستعمل الكلمات «جحافله» (البيت ١٥) و«حلائله» (البيت ١٦) و«فائله» (البيت ٢٧) في سياق كلامه عن حمار الوحش. يدمج الأخطل هذه المفردات في وصف حمار الوحش مما يضيفي على هذا الحيوان لديه صفة الهجين.

— نائله: يوظف كلا الشاعرين هذه الكلمة في سياق كلامهما عن سخاء الممدوح.

— مقاتله: استعمل زهير هذه المفردة في البيت ٣٣ بمعنى مجازي يعبر فيه عن حلمه ويقول إنه قد أعرض عن هجاء من هجاه ولو أن «مقاتله» أي نقاط الضعف فيه أو مثالبه ومساوئه بادية واضحة. في حين يستعمل الأخطل هذه الكلمة في البيت ٤١ لينعت ممدوحه بالشجاعة «...» ما تنفك تُرمى مقاتله».

— هو حامله: يقول زهير في قصيدته إن الغلام يَحْمِلُ الفرس على العدو سواء أحب هذا الأخير ذلك أم كرهه. في قصيدة الأخطل هذه الجملة مستعملة في مدحه لبشر بن مروان حين يزعم أن لا أحد يستطيع أن يتحمّل ما يتحمّله من الأعباء.

— شاغله: ترد هذه الكلمة في وصف زهير لتصرف الغلام الذي لم يكن يصغي لوصّاته لاشتغاله بالفرس. أما الأخطل فوظفها في الجزء الذي كرسه لمديح بشر فيقول إن طمع (ورق) الدنيا لا يشغل الممدوح عن الحق.

– زلازله: ترد هذه الكلمة في البيت الأخير من قصيدة زهير وتعلق بممدوحه وبمساندة الأحاليف له إذ يقول إن تدخلها بقي حصن بن حذيفة الشدائد. أما في قصيدة الأخطل فتأتي هذه المفردة في سياق آخر إذ يقحمها الشاعر في شكواه من الدهر الذي تغير وجاء بالأهوال وأودى النعيم.

التعلق النصي في غير القوافي

أشرنا في ما سبق إلى أنّ زهيراً يكرّس الجزء الثاني من قصيدته لوصف فرس ومشهد للصيد وأن الأخطل يتطرق لموضوع الرحيل في الجزء الثاني من قصيدته. ويسجل الأخطل هذا الاختلاف باستعماله فعلاً من نفس الجذر يقابل به الفعل الذي أورده زهير في البيت الذي يفتتح به وصفه للفرس إذ يقول:

٩- صَبَحْتُ بِمَمْسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ مُمَرٍّ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلهُ

ويقابل الأخطل هذا البيت بالبيت الانتقالي بين الجزأين الأول والثاني من قصيدته التي يقول فيها:

٨- فَأَصْبَحْتُ كَوْفِيًّا وَأَصْبَحَ أَهْلُهَا مَخَارِمُ مَرْدٍ دُونَهُمْ وَأُبَازِلُهُ

في هذا النوع من التناص ثمة بعض الحالات التي يستمد فيها الأخطل الفكرة من القصيدة النموذج ويعبر عنها بمفردات تختلف عن تلك التي استعملها زهير. مثلاً موتيف الشيب والشباب:

يقول زهير في البيت ٤:

فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شامله

ويقول الأخطل في البيت ٧:

رأت ريعان الشباب قد انجلا وأن مشيبي حاضرتني عواجله

وكذلك الأمر بالنسبة للهزال الذي أصاب الأتان:

يقول زهير في البيت ١٥:

ثلاث كأقواس السَّراءِ وناشطٌ قد اخضرَّ من لَسِّ الغَمِيرِ جَحَافِلُهُ

ويقول الأخطل في وصفه لحمار الوحش في البيت ١٢:

طوى بطنه طول السَّيَافِ وألحقت معاه بصلبٍ قد تفلَّقَ فائِلُهُ

ويصف هُزال الأتان في البيت ٢٢ فيقول:

غَيُورٌ طَوَى طَيِّ الْمَلَأِ بَطُونَهَا وَلَوَحَهَا تَشْحَاجُهُ وَصَلَا صَلُّهُ

يعبر الشاعران في هذه الأبيات عن نفس المعنى وهو ضمور الحيوان الموصوف، لكن كل واحد منهما يستعمل تعبيراً خاصاً به:

فزهير يشبه الأتان بالأقواس ونراه بكتفي بهذا التشبيه، أما الأخطل فيصف هزال حمار الوحش مستعملاً العبارتين «طوى بطنه...» و«ألحقت معاه بصلب...» ويضيف إلى الوصف ذكر السبب (السياف).

وشاعر تغلب ينهج نفس الطريقة في البيت ٢٢، يصف هزال الأتان (طوى طي الملاء بطونها...) ثم يقول إن ذلك راجع لتشجّاح حمار الوحش الذي كان يقلق راحتها ويخيفها. ويقول زهير في البيت ١٦ إن حمار الوحش كان وحيداً مع أتنه بعد فرار الجحاش التي كانت تصاحبه:

وَقَدْ خَرَمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَائِلُهُ

ويقتدي الأخطل بالقصيدة النموذج فيظهر حمار الوحش عنده منفرداً:

إِذَا اغْتَرَّهَا مِنْ بَطْنٍ غَيْبٍ تَكَشَّفَتْ لِرَوْعَاتِهِ جِحَشَانُهُ وَحَلَائِلُهُ

فالفعلان «خرم» و«تكشّفت» لهما نفس المعنى هنا إذ يعني الأول فرّق والثاني تفرّقت. فبالإضافة إلى القافية «وحلائله» يستمدّ الأخطل فكرة انعزال حمار الوحش من قصيدة زهير. لكن وضعية هذا الحيوان عند الأخطل تختلف شيئاً ما عن وضعيته في قصيدة زهير. فعند الأخطل حمار الوحش هو المسؤول الوحيد عن انعزاله، أضف إلى ذلك أن وحدته عند هذا الشاعر مؤقتة؛ في حين يمكننا أن نستنتج من قراءتنا لبيت زهير أن السبب في انعزال حمار الوحش عنده يرجع للصيادين وأن هذا الانعزال نهائي.

وكذلك الأمر بالنسبة للقوة الجسدية للحيوانات: يقول زهير بن أبي سلمى في وصفه للفرس إنّه «ممسود النواشر» وإنه «ممر» (أي مفتول شديد الفتل). ويشبه الأخطل الأتان بالحبال:

٩- صَبَحْتُ بِمَمْسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ مُمَرٍّ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلهُ (زهير)

٢٥- كَأَنَّ اللَّوَاتِي هُنَّ مُكْتَنِفَاتُهُ قُوَى أَنْدَرِيٍّ أَحْكَمَ الصُّنْعِ فَاتِلُهُ (الأخطل)

ويصف زهير حمار الوحش وهو يرعى فيقول:

١٥- ثَلَاثُ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَمِسْحَلٌ قَدْ اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ (زهير)

ثم يصف الفرس وقد اخضبت قوائمه من دم حمار الوحش فيقول:

٢٨- فَرَحْنَا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُخَضَّبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَامِلُهُ (زهير)
 فاستحسن الأخطل هذه الأوصاف واقتبسها فأنشد قائلاً:

٢٧- فَظُلَّ يَسُوفُ النَّهْيَ حَتَّى تَمَدَّرَتْ بَطِينِ الزُّبَى أَرْسَاغُهُ وَجَحَافِلُهُ (الأخطل)

ونلاحظ هنا من خلال المفردات المستعملة أنَّ الأخطل جمع بين وصفي زهير للفرس وحمار الوحش معاً في بيته هذا. فالطين تعوض عنده العشب والدم.

وفي نفس الإطار (القوة الجسدية) ينعت زهير الفرس بصلافة قوائمه وشدتها فيقول:

١٠- أَمِينٌ شَظَاهُ لَمْ يُخَرِّقْ صِفَاقَهُ بِمِنْقَبَةٍ وَلَمْ تُقَطَّعْ أَبَا جِلُّهُ (زهير)

ويستمد منه الأخطل هذا المعنى فيقول في حمار الوحش:

٣١- عَلَى أَنَّهُ يَكْفِيهِ صُمُّ نَسُورِهِ وَرُسْعُ أَمِينٍ لَمْ تَخُنْهُ أَبَا جِلُّهُ (الأخطل)

ومن بين المعاني التي اقتبسها الأخطل من مديح زهير ووظيفها في مديحه:

فكرة العطاء غير المنقطع الذي يغدقه الممدوح على الشاعر، وذلك باستعماله عبارة « ما

تَغْنِي ... فواضله »:

٣٤- جَزَاءٌ وَشُكْرًا لَامِرِيٍّ مَا تُغْنِي إِذَا جِئْتَهُ نَعْمَاؤُهُ وَفَوَاضِلُهُ (الأخطل)

وهذه العبارة موجودة في نفس السياق عند زهير إذ يقول:

٣٤- وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغْبُّ نَوَافِلُهُ (زهير)

ونلاحظ كذلك تقارباً بين العبارات التي استعملها الشاعران **لنعت شجاعة ممدوحيهما**.

يقول الأخطل مادحاً بشر بن مروان:

٣٥- أَخُو الْحَرْبِ مَا يَنْفَكُ يُدْعَى لِعُصْبَةٍ حَرُورِيٍّ أَوْ أَعَجَمِيٍّ يُقَاتِلُهُ

ويقول زهير:

٤٢- وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لِإِنْكَارِ ضَمِيمٍ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ

ويحمد الأخطل كرم بشر بهذه الاستعارة:

٣٩- إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا فِرَاتُنَا وَإِنْ شَهِدَ أَجْدَى فَيْضُهُ وَجَدَاوِلُهُ

ونعت الشاعر لعطاء ممدوحه الجزل بفيض الفرات مستمدّ ممّا جاء في مدح زهير لكرم حصن بن حذيفة إذ حمد هذه الخصلة فيه جاعلاً من يديه سحابة ممطرة ونعت ممدوحه في نفس البيت بصيغة المبالغة «فَيَاضَ» :

٣٤- وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ نَوَافِلُهُ

كما يقتبس الأخطل الفعل «أَفْضَى» من قصيدة زهير لكنه لا يستعمله بنفس المعنى، لأنه يُدرجه في سياق مختلف. فزهير يستعمل هذه الكلمة في البيت ٤٣ للتعبير عن شجاعة ممدوحه والفعل أفضى هنا له معنى «صار في الفضاء» وهو يعبر عن استعداد حصن للحرب ولمواجهة عمرو بن هند، ويذكرنا هذا البيت بالخبر الذي رواه حماد حين ذكر ما قاله حصن لعمرو : «فإنه ليس لي حصن إلا السيوف والرماح، وأنا لك بالفضاء». [انظر الملحق].

أما الأخطل فيستعمل هذا الفعل في البيت ٤٢ للتعبير عن مدى تقوى ممدوحه إذ يقول :

٤٢- جَزَاءُ امْرِئٍ أَفْضَى إِلَى اللَّهِ قَلْبُهُ بِتَوْبَتِهِ فَانْحَلَّ عَنْهُ أَثْقَلُهُ

تغيير السياق هنا ينتج عنه تغيير في المعنى.

ومن ضمن الخصال الحميدة التي مدحها الأخطل في بشر بن مروان، قدرته على تحمل الأعباء **والحسم في الأمور**، ونراه يعبر عنهما في هذا البيت قائلاً :

٣٣- فَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُهُ لَكْرِيهَةً وَلَا مُسْتَقِلٌّ بِالَّذِي هُوَ حَامِلُهُ

ولاشك أن كلام الأخطل مستمد مما جاء به زهير في مدحه لما قال :

٤٢- وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ

وأخيراً يصف الأخطل **وجه ممدوحه** وبياض بشرته في بيتين يقول فيهما :

٤٥- أَغْرَّ عَلَيْهِ التَّاجُ لَا مُتَعَبِّسٌ وَلَا وَرَقُ الدُّنْيَا عَنِ الْحَقِّ شَاغِلُهُ

٤٦- إِذَا انْفَرَجَ الْأَبْوَابُ عَنْهُ رَأَيْتُهُ كَصَدْرِ الْيَمَانِي أَخْلَصَتْهُ صَيَاقِلُهُ

ووصفه هذا يذكرنا بما قاله زهير واصفاً رحابة صدر حصن بن حذيفة وكرمه :

٣٩- تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

لقد وظف الأخطل القسط الأوفر من الاقتباسات في الجزأين الثاني والثالث من قصيدته يعني في الرحيل والمديح. وما يشد انتباه القارئ أن الفرس ومشهد الصيد في قصيدة زهير والرحيل في قصيدة الأخطل يشكّان الجزء الأطول في كلتا القصيدتين. لنحاول الآن أن نفهم هذه الظاهرة.

الفرس وحمار الوحش

الفرس

كما أشرت سالفاً، الجزء الثاني الذي خصصه زهير لوصف الفرس ومشهد الصيد يحظى بالقسط الأوفر من الأبيات التي تكوّن قصيدته. فلا بد أن يكون لهذا الكم معنى سأحاول إبرازه فيما يلي. يجعل زهير من هذا الفرس فرساً نموذجياً له كل الصفات الحسنة وكل الخصال؛ ويوظف الشاعر في وصفه حقلين دلاليين، يخص بأولهما قوة بنية الفرس وبثانيهما سرعته ونشاطه.

– الحقل الدلالي الخاص بالقوة

البيت	عناصر الحقل الدلالي الخاص بالقوة
٩	ممسود النواشر/ممرّ/أسيل الخد/نهد المراكل
١٠	أمين شظاه/لم يخرّق صفاقه بمنقبة/لم تقطع أباجله
١١	أكمل صنعه فتّم/عزته يدها وكاهله
٢٠	وملجمنّا ما إن ينال قذاله
٢١	محبوك/ظماء مفاصله

– الحقل الدلالي الخاص بالسرعة

البيت	عناصر الحقل الدلالي الخاص بالسرعة والنشاط
٩	سابع
١٨	فبتنا عراة عند رأس جوادنا / يزاولنا عن نفسه ونزاوله
١٩	فنضربه حتى اطمأنّ قذاله / ولم يطمئنّ قلبه وخصائله
٢٠	[ما تنال] قدماه الأرض إلاّ أنامله
٢٤	كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله
٢٦	وهو لاحق/سراع تواليه صياب أوائله
٢٨	ينضو الجياد
٢٩	بذي ميعة لا موضع الرمح مسلم/لبطء ولا ما خلف ذلك خاذله

شخص الفرس في قصيدة زهير

من بين الخصال التي نعت بها زهير الفرس في قصيدته هذه، قدرته الكبيرة على السرعة في الجري؛ ونقرأ في تعليق أبي عمرو الشيباني عن البيت الذي جاء فيه هذا الوصف (ص ١٢١): «وقال الأصمعي: لم يصب في نعته، لأنه لا يُحمَد أن يكون سريع المشي»، ونقرأ في الهامش رقم واحد في نفس الصفحة: «قال الأصمعي: لم يصب في نعته، لأنه وصفه بسرعة المشي، ولا توصف العتاق بذلك».

هل يمكننا أن نتصور أن زهيراً كان يجهل حقاً ما يعيبه عليه الأصمعي هنا؟ نعتقد أن لوصف الفرس ومشهد الصيد مغزى آخر يبعد عن حقيقة ممارسة هذا النشاط في الواقع، فعلينا أن نبحث عنه آخذين بعين الاعتبار غرض هذه القصيدة الأساسي والظروف التي دفعت بالشاعر إلى نظمها، كما يجب علينا أن نتساءل عن الهدف الذي كان زهير يصبو إليه عند إدراجه لوصف الفرس ومشهد الصيد في هذا المديح.

بإمكاننا استغلال كمال هذا الفرس في تفسير وجوده كشخص في هذه القصيدة وذلك على مستويات مختلفة:

– وجود الفرس بهذه الأوصاف يمكن اعتباره بمثابة ردّ على الملك اللخمي الذي حاول أن يرشّو الممدوح بمنحه خيلاً، فكأن الشاعر يقول لعمر بن هند انظر ما لدينا من أفراس، فحصى بن حذيفة ليس بحاجة إلى خيلك.

– ويمكننا كذلك أن نرى في وصف الفرس ومشهد الصيد عملية انشطار (une mise en abyme). وانطلاقاً من هذه الفرضية نستطيع القول بأن محتوى هذا الجزء من القصيدة يعكس قصة الممدوح مع عمرو بن هند، ويلخصها. وبالتالي تبرز لنا علاقة جديدة بين الجزء الثاني من القصيدة والجزء الأخير، تتجلى في التوازي بين شخص الفرس وشخص الممدوح، وبين مشهد الصيد ومشهد الحرب التي استعد لها حصن بن حذيفة كما تخبرنا بذلك القصيدة وما ورد في الخبر التقديمي لها.

حمار الوحش

في البيت الحادي عشر يشبّه الأخطل مطيته بحمار الوحش، وينتقل من الكلام عنها إلى وصف هذا الحيوان وسرد قصته (من البيت ١١ إلى البيت ٣١).

ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من النقاد يعتبرون انتقال الشعراء من وصف المطية إلى رواية قصة حمار الوحش أو قصة الثور الوحشي استطراداً يستعرض فيه الشاعر مهاراته.

ولقد ذهب بعضهم إلى أنّ تشبيه الناقة بحمار الوحش أو غيره من الحيوانات «غرض في حدّ ذاته يقصد إليه الشعراء قصداً ثم يصطنعون لذلك الأسباب والحيل» ورأوا أن قصص هذه الحيوانات قصص رمزية وأن الهدف من وراء سردها في إطار وصف الناقة هو «الحديث عن رحلة الحياة نفسها

التي لا تتوقف حتى تنتهي بها المغالبة والكفاح إلى ميناء الموت، الحياة الجاهلية التي تتقاذفها الحروب والخلافات وشح الطبيعة القاسية، [...]»^{١٠}.

كما زعم آخرون أن الشعراء يعبرون بحكاية حمار الوحش «عن الضعف الذي آلت إليه القبيلة بعد الحروب الدامية، [...]» وأن «الحمار الوحشي الصلب الذي يصوره الشعراء هو شيخ القبيلة المطاع، [...]»^{١١}!

في رأيي تكون قصة حمار الوحش انشطاراً يعكس ويلخص قصة الشاعر ويلمح إلى نهايتها قبل أوانها.

لنشر هنا إلى أن قصة حمار الوحش في قصيدة زهير تختلف عن قصته في قصيدة الأخطل. فعند زهير يصاب الحمار بجروح ويتمكن منه الصيادون؛ أما عند الأخطل، وبعد رحلة دامت ثلاث ليال يصل حمار الوحش إلى المكان المنشود، ونراه ينعم بالماء والعشب هو وأتته:

٢٦- ثَلَاثَ لَيَالٍ ثُمَّ صَبَّحَنَ رِيَّةً وَخُضْرًا مَنِ الْوَادِي رَوَاءَ أَسَافِلِهِ
٢٧- وَظَلَّ يَسُوفُ النَّهْيَ حَتَّى تَمْدَرَتْ بَطِينِ الزَّبْيِ أَرْسَاغُهُ وَجَحَافِلُهُ
٢٨- يُغْنِيهِ بِالْفَيْضِ الْبَعُوضُ كَأَنَّهَا أَغَانِي عُرْسٍ صَنْجُهُ وَجَلَا جِلُّهُ

كُلُّ رَحِيلِ حِمَارِ الْوَحْشِ بِالنَّجَاحِ إِذْ تَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَاءِ، وَهَاهِي الْبَعُوضُ تَحْتَفِلُ بِهِ وَتَهْنِئُهُ.

الشاعر هو كذلك يقوم برحيل، وهدف رحيله ممدوحه بشر بن مروان. يقصد الشاعر الممدوح ليلبي هذا الأخير حاجته:

٣٢- وَمُسْتَقْبِلَ لَفْحِ الْحَرُورِ بِحَاجَةٍ إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهُ
٣٣- إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَغْوَارِ حَتَّى يَزُرَّنَاكُمْ بِمَدْحَةِ مَحْمُودٍ نَثَاهُ وَنَائِلُهُ

والملاحظ هنا أن الأخطل يعبر عن كرم ممدوحه مستعملاً مفردات وتعابير لها علاقة بالماء. فبالإضافة إلى الكلمتين: نعماء وفواضل (البيت ٣٤):

جَزَاءً وَشُكْرًا لِمَرِيٍّ مَا تُغْبِنِي إِذَا جِئْتُهُ نَعْمَاؤُهُ وَفَوَاضِلُهُ

يقول الأخطل إن بشر بن مروان فرائه وأنه ينتفع من فيضه وجداوله:

١٠. وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢، (الطبعة الثالثة)، ص. ٩٧-٩٨ وص. ٢٤١.

١١. أنور عليان أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، بيروت، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص. ١٨٥.

٣٩- إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا فُرَاتُنَا وَإِنْ شَهِدَ أَحَدِي فَيَضُّهُ وَجَدَاوُلُهُ

وما يجب أن نشير إليه هو أن الشعراء يستعملون عادة حقلاً معجمياً (un champ lexical) مرتبطاً بالماء للتعبير عن سخاء ممدوحهم.

إذن هناك تواز بين قصة حمار الوحش ورحيل الشاعر إلى ممدوحه، فعوض وصف الحرمان من جهة والمشاق التي واجهها الشاعر للوصول إلى الممدوح من جهة أخرى، نراه يشحن كل ذلك في قصة حمار الوحش التي تعكس هنا حاجته.

والتوازي بين القصتين الذي أبرزناه ليس هو الوحيد، إذ ثمة تواز آخر يجمع بين شخصيتي الشاعر وحمار الوحش.

لقد حقق حمار الوحش مبتغاه إذ تمكن، بعد جهد جهيد، من الوصول بأتفه إلى الماء المنشود؛ وصور ذلك الشاعر في البيت ٢٨.

لكنه غير مرتاح في هذا المكان الذي رغب وجدَّ في الوصول إليه؛ فالحجارة الكثيرة الكبيرة منها والصغيرة والثابت في الأرض منها وغير الثابت توجع بواطن حوافره وتؤلّمه مع أن حوافره صلبة وقوائمه أمانة وثيقة:

٢٩- وَظَلَّ بِحَيْرُومٍ يَفْلُ نَسُورُهُ وَإِيَّوَجُعُهُ صَوَّانُهُ وَأَعَابِلُهُ
٣٠- إِذَا مَسَّ أَطْرَافُ السَّنَابِكِ رَدَّهَا إِلَى صُلْبِهَا جَاذِي حَصَاهُ وَجَائِلُهُ
٣١- عَلَى أَنَّهُ يَكْفِيهِ صَمُّ نَسُورُهُ وَرُسْعُ أَمِينٍ لَمْ تَخْنَهُ أَبَاجِلُهُ

فعدم الارتياح هنا وقلق حمار الوحش يطابق عدم ارتياح وقلق الشاعر الذي يصرح في نهاية قصيدته أنه يعاني من قساوة الدهر وأهواله:

٣٧- فَإِنْ يَكُ هَذَا الدَّهْرُ وَلَّى نَعِيمُهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَضُّهُ وَزَلْزِلُهُ
٤٨- فَمَا أَنَا مِنْ حُبِّ الْحَيَاةِ بِهَارِبٍ إِلَى الْمَوْتِ إِنْ جَاشَتْ عَلَيَّ مَسَائِلُهُ

ويختتم الأخطل قصيدته بطلب واضح يوجهه لممدوحه، وهذا الطلب يتعلق بمكانته لدى الممدوح إذ يريد ألا تكون هذه المكانة كتلك التي يحظى بها عدو المروانيين زفر بن الحارث الذي كان قد بايع عبد الله بن الزبير بن العوام وحارب الأمويين إلى جانبه:

٤٩- فَلَا تَجْعَلَنِي يَا ابْنَ مَرْوَانَ كَامِرِيَّ غَلَّتْ فِي هَوَى آلِ الزُّبَيْرِ مَرَايِلُهُ
٥٠- يُبَايِعُ بِالْكَفِّ الَّتِي قَدْ عَرَفْتُهَا وَفِي قَلْبِهِ نَامُوسُهُ وَغَوَائِلُهُ

ويمكن القول بأن هذا الطلب يتجاوز قضية مكانة الشاعر عند الممدوح، فزفر بن الحارث هذا كان زعيم القيسية، وقيس عيلان كانت تؤازر الزبيريين وتحارب المروانيين إلى جانبهم. ولقد عرض عبد الملك بن مروان الأمان على زفر وكان يرغب في مصالحته لوضع حد للفتنة. إلا أن الأخطل والتغلبين لم يكونوا راضين بهذه المصالحة لأسباب منها حماية الأمويين لهم ورغبتهم

في حياة مطمئنة بالجزيرة، فحاولوا جاهدين تقويض العلاقة بين عبد الملك ورئيس القيسية زفر. وها هو شوقي ضيف يروي لنا (في الصفحة ١٣٦ من كتابه «التطور والتجديد في الشعر الأموي») حادثة تحمل نفس المغزى وتوضح مدى التضايق الذي كانت تشعر به قبيلة تغلب من التقارب بين القيسية والمروانيين. يقول شوقي ضيف:

«أما الحادثة الثانية فحادثة زُفر بن الحارث زعيم قيس في الجزيرة، فإن عبد الملك جذبته إليه وأجلسه معه على سريرته تكريماً له، فغضبت تغلب وثارَت نائرة سفيرها (يعني الأخطل)، فدخل على عبد الملك مَغِيضاً مُحَنَقاً، وقال له: أَتُجَلِّسُ هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس:

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ

فقبض عبد الملك رجله ودفع بها في صدر زُفر، فانقلب عن السرير ووقف يناشد عبد الملك العهد الذي أعطاه»^{١٢}.

هذه إذن هي الأسباب التي تفسر وجود الأبيات الأربعة الأخيرة في قصيدة الأخطل، وتفسر قلقه. فالأخطل يدافع عن نفسه وعن قبيلته ويحتج على سياسة المروانيين تجاه القيسية، إذ كان الحكم آنذاك يرغب في مصالحة هذه القبيلة لوضع حد للحرب الأهلية التي كانت قيس تخوضها ضد المروانيين إلى جانب آل الزبير الذين كانوا ينازعونهم الحكم والخلافة.

كانت هذه المصالحة تشكل تهديداً كبيراً بالنسبة لتغلب كقبيلة محالفة ومساندة للمروانيين لأن هذه المصالحة كانت ستحرمها من الامتيازات التي تحظى بها عند العائلة الحاكمة كقبيلة حليفة؛ كما كان مبدأ هذه المصالحة يشكل تهديداً كبيراً على كيانه تغلب ووجودها بالجزيرة.

وليست هذه أول مرة يحتج فيها الأخطل ويشتكى من وضعه ووضع قبيلته (وإن لم يذكر القبيلة بطريقة صريحة)، إذ يردد الكلام عن قلقه وتضايقه (مع اختلاف في التعابير) في قصيدتين أخريين مدح فيهما بشر بن مروان. نكتفي هنا بذكر إحداها:

القصيدة ٢٠، ص ١٢٠-١٢٤ من الديوان: [من الطويل]

- | | |
|---|---|
| ١٨- وَنَفْسِي تُمَنِّينِي الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ | وَبَشَرٌ هَوَاهَا مِنْهُمْ وَحَمِيمُهَا |
| ١٩- إِذَا بَلَغْتَ بِشَرِ ابْنِ مَرْوَانَ نَاقَتِي | سَرَتْ خَوْفَهَا نَفْسِي وَنَامَتْ هُمُومُهَا |
| ٢٠- إِمَامٌ يَقْوَدُ الْخَيْلَ حَتَّى كَانَهَا | صُدُورُ الْقَنَا مُعَوَّجُهَا وَقَوِيمُهَا |
| ٢١- إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى تَخْضَعَ الْحَرْبُ بَعْدَهَا | تَخَمَّطَ مَرَحَاهَا وَتَحْمَى قُرُومُهَا |
| ٢٥- وَإِنَّكَ لِلْمَأْمُولِ وَالْمُتَّقَى بِهِ | إِذَا خِيفَ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ عَظِيمُهَا |
| ٢٦- وَإِنَّكَ فِي الْأُخْرَى إِذَا هِيَ شَبَّهَتْ | لَقَطَّاعُ أَقْرَانِ الْأُمُورِ صَرُومُهَا |

١٢. شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥، ص. ١٣٦.

٢٧- فَلَا تُطْعِمَنَّ لَحْمِي الْأَعَادِي إِنَّهُ سَرِيعٌ إِلَيْكُمْ مَكْرُهَا وَنَمِيمُهَا

نعتقد أنَّ الخليفة عبد الملك كان أحق بأن يسمع كلام الأخطل من أخيه وواليه على العراقيين. وكأننا به يتشفع ببشر ويستجير به طالباً منه التدخل والدفاع عنه وعن قبيلته عند الخليفة.

- إِنَّكَ حِصْنٌ^{١٣}

بقي بيت من قصيدة الأخطل لم نتوقف عنده حتى الآن وهو البيت الذي يقول فيه:

٤٠- وَإِنَّكَ حِصْنٌ مِّنْ قُرَيْشٍ وَإِنِّي بِأَسْبَابِ حَبْلِ مِّنْكُمْ مَا أَزَايلُهُ

كلمة حصن واردة أيضاً في البيت ٣٧ من قصيدة الأخطل، لكن في صيغة الجمع؛ عندما يقول الشاعر مخاطباً ممدوحه: «أبحث حصون الأعجمين». لكنها موجودة كذلك في البيت الأربعين في هذه الاستعارة التي يجعل فيها الأخطل من ممدوحه حصناً. وكما نعلم «حصن» هو اسم ممدوح زهير.

١٣. تطرق توماس باور في الجزء الثاني من كتابه بنية الشعر العربي القديم وتطوره، قصة حمار الوحش نموذجاً، لدراسة قصة حمار الوحش في شعر الأخطل (انظر الجزء الثاني، ص ٣٣٥-٣٧٦). وفي إطار هذه الدراسة تناول الباحث الألماني بالتحليل قصة هذا الحيوان في قصيدة الأخطل «صحا القلب عن أروى وأقصر باطله...» وقارنها بالقصيدة النموذج التي نظمها زهير بن أبي سلمى (انظر الجزء الثاني، ص ٣٥٣-٣٦٣).

ويشير باور (ص ٣٥٩) إلى أن هناك تشابه كبير في البنية بين القصيدتين، كما يشير إلى وجود اختلاف بينهما في موضوع «الجزء الأوسط»، يعني مشهد الصيد عند زهير والرحيل الذي يتضمن قصة حمار الوحش عند الأخطل (ص ٣٥٩-٣٦٠).

كما يذكر توماس باور (ص ٣٦٠) أن هناك بعض أوجه التشابه بين ما ورد في مديح حصن بن حذيفة عند زهير ومديح بشر بن مروان في قصيدة الأخطل. ويضيف المؤلف أن دراسته ليست المكان المناسب لتوضيح هذا التشابه. [لنذكر هنا بأن موضوع بحثه هو قصة حمار الوحش]. ولكن هذا لم يمنعه من الإشارة إلى أنه يرى في استعمال الأخطل لكلمة «حصن» في وصفه لممدوحه تلميحاً [Anspielung] (ص ٣٦٠) لاسم ممدوح زهير بن أبي سلمى.

وينتهي توماس باور تعليقه عن العلاقة بين القصيدتين (ص ٣٦٠) بالإشارة إلى أن اختيار الأخطل لقصيدة زهير لم يأت من باب الصدفة ولا الاعتبار إذ أن أحد أحفاد ممدوح زهير بن سلمى، وهو أسماء بن خارجة بن حصن، كان سيد فزارة وكانت تربطه علاقة صداقة بالأسرة الحاكمة، وكان بشر بن مروان صهراً له وزوج بنته هند. ففي هذا المديح لا يَجَلُّ الأخطل ممدوحه بشر بن مروان فحسب بل يُفرح في نفس الوقت زوجته هند التي كانت تحب الشعر وتتذوقه.

انظر:

Thomas BAUER, *Altarabische Dichtkunst. Eine Untersuchung ihrer Struktur und Entwicklung am Beispiel der Onagerepisode*, Wiesbaden, Harrassowitz Verlag, 1992, vol. 2, p. 335-376.

نفهم من خلال هذا البيت أبعاد المشروع الإبداعي لشاعرنا وكيف أمدته معارضته لقصيدة زهير بمعطيات وظفها لتحقيق هذا المشروع.

– خاتمة

لقد اقتبس الأخطل، في إطار معارضته لقصيدة زهير، معاني ومفردات وتشبيهات وعبارات عديدة لكن اقتباساته هذه لم تقده إلى درجة محاكاة نموذجها عمياء لأنه عرف كيف يسخر تقليده لزهير ويوظفه وفقاً لخدمة مشروعه الإبداعي الخاص.

وهكذا رأيناه يصف حمار وحش عوض الفرس، ويجعل مصير حمار الوحش يختلف عن مصيره عند زهير. وأعتقد أن هذه التغييرات ترجع لظروف سياسية خاصة كانت تعيشها قبيلة الشاعر ولطبيعة العلاقة التي كانت تربط الأخطل بممدوحه.

بمعارضته لهذه القصيدة أراد الشاعر الأموي أن يعبر عن مدى إعجابه بزهير، والبرهنة على أنه شاعر لا يقل مهارة عن نموذج بل إنه قد يتفوق عليه. ومما لا شك فيه أن محاكاة الأخطل لزهير تؤدي، قصداً أو عن غير قصد، بالسامع أو بالقارئ إلى إقامة مطابقة بين الشاعرين.

من جهة أخرى ما كان يصبو إليه الشاعر الأموي من وراء محاكاته هو أن يرسخ في الأذهان أن ممدوحه بشر بن مروان يوازي أو يطابق ممدوح زهير ويشاركه نفس الخصال الحميدة من كرم وشجاعة وشهامة. انظر على سبيل المثال ما قاله الشاعر عن محاربة الممدوح للخوارج (الحرورية) (البيت ٣٥) وكذلك محاربته للأعاجم (انظر البيتين ٣٥ و ٣٧). وهذه الخصال هي التي دفعت بالشاعر إلى التشبث بحبل بشر «الحصن».

ولقد استمد الأخطل هذه الخصال من ذلك الخزان الذي يمثله نموذج الشعري. في الوقت نفسه تساهم قصيدته، لكونها معارضة، في تأييد هذه الخصال وتأييد خزانها.

١٤. تقول سوزان ستيتكيفيش في موضوع المحاكاة ما مفاده:

« اختيرت القصيدة الجاهلية في العصر الأموي كنموذج نمطي لتثبيت نفوذ صوت الشاعر، لأن الشاعر في ذلك العصر كان بحاجة إلى أن يُقاس شعره حسب معايير تحويها قصيدة المديح الجاهلية النموذج ». وتتابع قائلة إن اختيار الشاعر لهذه القصيدة هو الذي يجعل منها بصفة تلقائية قصيدة نموذجية. وترى ستيتكيفيش أن كون قصيدة المديح الجاهلية أصبحت أنموذجاً في العصر الأموي جعل منها قاعدة نفوذ الشاعر في تلك الحقبة. انظر:

- Suzanne Pinckney Stetkevych, *The poetics of Islamic Legitimacy, Myth, Gender, and Ceremony in the Classical Arabic Ode*, Indiana University Press, Bloomington & Indianapolis, 2002.

ملحق

قصيدة زهير بن أبي سلمى^{١٥}

نص الخبر الذي يقدم لقصيدة زهير:

«وقال، يمدح حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزاري. قال حماد: وكان عمرو بن هند حين قُتل حذيفة، وكانت الحرب بين غطفان، طمع في حصن وفي غطفان أن يُصيب بهما حاجته. وكان حصن والحليفان لم يدينوا لملك قط. فأرسل إلي حصن: إني مُمدك بخيل، فادخل في مملكتي، واجعل لك ناحية من الأرض. فأرسل إليه حصن: ما كنت قط أفرغ لحربك مني الآن، ولا أكثر عدة. فإن كنت لا يكفيك ما جرب أبوك فدونك لا تعتل، فإنه ليس لي حصن إلا السيوف والرمح، وأنا لك بالفضاء. وأقبل حصن بالحليفين، أسد وغطفان، حتى نزل زباله فصده عنه عمرو بن هند وكره قتاله. فقال زهير في ذلك: [من الطويل]

- ١- صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ
 - ٢- وَأَقْصَرَ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَّدَتْ
 - ٣- وَقَالَ الْعَذَارَى إِنَّمَا أَنْتَ عَمْنَا
 - ٤- فَأَصْبَحَنْ مَا يَعْرِفْنَ إِلَّا خَلِيقَتِي
 - ٥- لَمَنْ طَلَّلَ كَالْوَحْيِ عَافَ مَنَازِلُهُ
 - ٦- فَكُفَّ فَصَارَتْ فَأَكْنَفُ مَنَعَجٍ
 - ٧- فَهَضْبٌ فَرَقْدٌ فَالطَّوِيُّ فَشَادِقٌ
 - ٨- وَغَيْثٌ مِنَ الْوَسْمِيِّ حَوْ تِلَاعُهُ
 - ٩- صَبَحَتْ بِمَمْسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ
 - ١٠- أَمِينٌ شَظَاهُ لَمْ يُخَرِّقْ صِفَاقُهُ
 - ١١- قَلِيلًا عُلْفَنَاهُ فَأَكْمَلَ صُنْعُهُ
 - ١٢- إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً
 - ١٣- فَبَيْنَا نُبْغِي الْوَحْشَ جَاءَ غُلَامُنَا
- وَعَرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ
عَلَيَّ سَوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ
وَكَانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيطِ نَزَائِلُهُ
وَالْأَسْوَدُ الرَّأْسُ وَالشَّيْبُ شَامِلُهُ
عَفَا الرَّسُّ مِنْهُ فَالرُّسَيْسُ فَعَاقِلُهُ
فَشَرَقِي سَلَمَى حَوْضُهُ فَأَجَاوِلُهُ
فَوَادِي الْقَنَانِ حَزْنُهُ وَأَفَاكِلُهُ
أَجَابَتْ رَوَابِيهِ النَّجَاءَ هَوَاطِلُهُ
مُمَرَّ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٌ مَرَاكِلُهُ
بِمَنْقَبَةٍ وَلَمْ تَقْطَعْ أَبَا جِلْهُ
فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ
مَتَى نَرَهُ فَإِنَّا لَا نُخَاتِلُهُ
يَدِبُ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ

١٥. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، ثم حنا نصر الحتي، بيروت، دار الكتاب العربي،

١٩٩٢، ص ١١٣-١٢٥.

- ١٤- فَقَالَ شَيْءٌ رَاتِعَاتٌ بِقَفْرَةٍ
 ١٥- ثَلَاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَنَاشِطٌ
 ١٦- وَقَدْ خَرِمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جَحَاشُهُ
 ١٧- وَقَالَ أَمِيرِي مَا تَرَى رَأْيِي مَا نَرَى
 ١٨- فَبِتْنَا عُرَاءً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا
 ١٩- فَنَضْرِبُهُ حَتَّى إِطْمَأَنَّ قَدَالَهُ
 ٢٠- وَمُلْجَمْنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَدَالَهُ
 ٢١- فَلَأَيًّا بَلَايٍ قَدْ حَمَلْنَا غُلَامَنَا
 ٢٢- فَقُلْنَا لَهُ سَدِّدْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ
 ٢٣- وَقُلْتُ تَعَلَّمْ أَنَّ لِلصَّيْدِ غَرَّةً
 ٢٤- فَاتَّبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلِيدُنَا
 ٢٥- نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ
 ٢٦- يُثْرِنَ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ
 ٢٧- فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ الْفَهْ
 ٢٨- وَرُحْنَا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً
 ٢٩- بِذِي مَيْعَةٍ لَا مَوْضِعَ الرَّمْحِ مُسْلِمٌ
 ٣٠- وَذِي نِعْمَةٍ تَمَّتْهَا وَشَكَرْتُهَا
 ٣١- دَفَعْتُ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ صَائِبٌ
 ٣٢- وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسِبُ أَنَّهُ
 ٣٣- عَبَأْتُ لَهُ حِلْمِي وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ
 ٣٤- وَأَبْيَضُ فَيَّاضٌ يَدَاهُ غَمَامَةٌ
 ٣٥- بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدُوَّةً فَوَجَدْتُهُ
 ٣٦- يُفَدِّينُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنُهُ
 ٣٧- فَأَعْرَضَنَ مِنْهُ عَنِ كَرِيمٍ مُرَرَّءٍ
 ٣٨- أَخِي ثِقَّةً لَا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ
 ٣٩- تَرَاهُ إِذَا مَا جَاءَتْهُ مُتَهَلِّلًا
 ٤٠- وَذِي نَسَبٍ نَاءٍ بَعِيدٍ وَصَلَتْهُ
 ٤١- حُذِيفَةُ يُنْمِيهِ وَبَدْرٌ كِلَاهُمَا
 ٤٢- وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
- بُمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حَوْ مَسَائِلُهُ
 قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسِ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَائِلُهُ
 أَنْخَتَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نَصَاوِلُهُ
 يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ
 وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ
 وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنْامِلُهُ
 عَلَى ظَهَرٍ مَحْبُوكٍ ظُمَاءٍ مَفَاصِلُهُ
 وَمَا هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَاتِي شَاغِلُهُ
 وَإِلَّا تُضَيِّعُهُ فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ
 كَشُؤْبُوبٍ غَيْثٍ يَحْفَشُ الْأُكْمَ وَأَبْلُهُ
 عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ
 سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ
 عَلَى رَغْمِهِ يَدْمِي نَسَاءَهُ وَفَائِلُهُ
 مُخْضَبَةٌ أَرْسَاغُهُ وَحَوَامِلُهُ
 لِبُطْءٍ وَلَا مَا خَلْفَ ذَلِكَ خَاذِلُهُ
 وَخَصْمٌ يَكَادُ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
 إِذَا مَا أَضَلَّ الْقَائِلِينَ مَفَاصِلُهُ
 مُصِيبٌ فَمَا يُلِمُّ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ
 وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ
 عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَغَبُّ نَوَافِلُهُ
 قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
 وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِيْنَ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ
 جَمُوعٌ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ
 وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ
 كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
 بِمَالٍ وَمَا يَدْرِي بِأَنَّكَ وَاصِلُهُ
 إِلَى بَاذِخٍ يَعْلُو عَلَى مَنْ يُطَاوِلُهُ
 لِانْكَارٍ ضَمِيمٍ أَوْ لِإِمْرِ يُحَاوِلُهُ

- ٤٣- أَيْ الضَّيْمِ وَالنُّعْمَانُ يَحْرِقُ نَابُهُ عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسَّيْفُ مَعَاظِلُهُ
 ٤٤- إِذَا حَلَّ أَحْيَاءُ الْأَحَالِيفِ حَوْلَهُ بَذِي لَجَبٍ أَصَوَاتُهُ وَصَوَاهِلُهُ
 ٤٥- يَهْدُ لَهُ مَا بَيْنَ رَمْلَةٍ عَالِجٍ وَمَنْ أَهْلُهُ بِالْغُورِ زَالَتْ زَلَاظِلُهُ

قصيدة الأخطل^{١٦}

- ١- صَحَا الْقَلْبُ عَنْ أَرَوَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ
 ٢- أَجَدَّكَ مَا نَلْقَاكَ إِلَّا مَرِيضَةً
 ٣- عَفَا وَاسْطُ مِنْهَا فَأَلْجَأُ حَامِرٍ
 ٤- وَقَدْ كَانَ مِنْهَا مَنْزِلًا نَسْتَلِدُهُ
 ٥- وَأَدَّتْ إِلَيْنَا عَهْدَهَا أُمُّ مَعْمَرٍ
 ٦- دَعَتْهَا نَوَى عَنَّا شَطُونٌ وَلَيْتَهَا
 ٧- رَأَتْ أَنَّ رِيْعَانَ الشَّبَابِ قَدْ انْجَلَا
 ٨- فَأَصْبَحْتُ كَوْفِيًّا وَأَصْبَحَ أَهْلُهَا
 ٩- فَسَوْفَ تُودِّينَا مِنْ اللَّهِ ذِمَّةً
 ١٠- وَمُحْتَقِرَ جَوَزِ الْفَلَاةِ إِذَا انْتَحَى
 ١١- كَأَنِّي أَغُولُ الْأَرْضَ عَنِّي بِقَارِحٍ
 ١٢- طَوَى بَطْنُهُ طَوْلَ السَّيْفِ وَالْحَقَّتْ
 ١٣- رَعَا الْعُودُ مَاءَ الرُّوْضِ حَتَّى تَحَسَّرَتْ
 ١٤- فَلَمَّا تَلَوَّى فِي جَحَافِلِهِ السَّفَا
 ١٥- تَذَكَّرَ قِرْعَاءَ الْقَتُودِ فَلَمْ يَجِدْ
 ١٦- وَظَلَّ كَمِثْلِ النُّصْبِ يَقْذِفُ طَرْفَهُ
 ١٧- وَذَكَّرَهَا إِذْ أَدْبَرَ الصَّيْفُ بِالثَّرَى
 ١٨- فَرَاخَ وَرَاحَتِ يَتَّقِيهَا بِنَاحِرِهِ
 ١٩- فَطَالَ عَلَيْهِ الشَّدُّ حَتَّى كَأَنَّمَا
 ٢٠- بِمُجْتَمَعِ التَّلْعِينِ خَوْصًا تَلْفُهَا
 ٢١- إِذَا اعْتَزَّهَا مِنْ بَطْنٍ غَيْبٍ تَكْشَفَتْ
- وَعَادَ لَهُ مِنْ حُبِّ أَرَوَى أَخَابِلُهُ
 تُدَاوِينَ قَلْبًا مَا تَنَامُ بِلَابِلِهِ
 فَرُوضُ الْقَطَا صَحْرَاؤُهُ فَخَمَائِلُهُ
 أَعَامِقُ بَرَقَاوَاتِهِ فَأَجَاوِلُهُ
 فَقَدْ جَعَلْتُنَا كَالْخَلِيطِ نَزَائِلُهُ
 ثَوَتْ مَا ثَوَى عِنْدَ الْكَلَابِ جَنَادِلُهُ
 وَأَنْ مَشِيْبِي حَاضَرْتَنِي عَوَاجِلُهُ
 مَخَارِمُ مَرَدٍ دُونَهُمْ وَأَبَازِلُهُ
 وَإِلْحَاقُ تَهْجِيرٍ بِلَيْلٍ أَوَاصِلُهُ
 وَشَدَّ بِمَقْتُورٍ مِنَ الْمَيْسِ كَاهِلُهُ
 أَخِي قَفْرَةٌ قَدْ طَارَ عَنْهُ نَسَائِلُهُ
 مَعَاهُ بَصْلَبٌ قَدْ تَفَلَّقَ فَائِلُهُ
 عَقِيقَتُهُ وَأَنْضَمَّ مِنْهُ ثَمَائِلُهُ
 وَأَوَجَعَهُ مَرْكُوزُهُ وَذَوَابِلُهُ
 بِهَا مِنْهَلًا إِذْ أَعَوَزَتْهُ أَكَاخِلُهُ
 إِلَى كُلِّ شَخْصٍ نَابِيٍّ هُوَ عَادِلُهُ
 وَحَرَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ عَذَابًا مِنْهَا لُهُ
 وَيَحْمِلُهَا فَوْقَ الْأَحْزَةِ وَابِلُهُ
 يَرَى بِسَوَادِ الْمَرَوْ قِرْنًا يُوصِلُهُ
 هَوَاجِرٌ وَقَادٍ رَكُودٍ أَصَائِلُهُ
 بِرُوعَاتِهِ جِحْشَانُهُ وَحَلَائِلُهُ

١٦. شعر الأخطل، تحقيق الأب أنطون صالحاني، بيروت، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، ١٩٦٩، ص ٥٨-٦٥.

- ٢٢- غَيُورٌ طَوَى طَيِّ الْمَلَاءِ بَطُونَهَا
 ٢٣- بَصِيرٌ بِأَخْرَاهَا يَسُوفُ فُرُوجَهَا
 ٢٤- تَبْصِصُ مِنْهُ كُلُّ قَوْدَاءٍ مُرْتَجٍ
 ٢٥- كَأَنَّ اللَّوَاتِي هُنَّ مُكْتَنَفَاتُهُ
 ٢٦- ثَلَاثَ لَيَالٍ ثُمَّ صَبَحَنَ رِيَّةً
 ٢٧- فَظَلَّ يَسُوفُ النَّهْيَ حَتَّى تَمْدَرَتْ
 ٢٨- يُغْنِيهِ بِالْفَيْضِ الْبَعُوضُ كَأَنَّهَا
 ٢٩- وَظَلَّ بِحَيْزُومٍ يَفْلُ نُسُورُهُ
 ٣٠- إِذَا مَسَّ أَطْرَافَ السَّنَابِكِ رَدَّهَا
 ٣١- عَلَى أَنَّهْ يَكْفِيهِ صَمٌّ نُسُورُهُ
 ٣٢- وَمُسْتَقْبِلَ لَفْحِ الْحَرُورِ بِحَاجَةٍ
 ٣٣- إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَغْوَارِ حَتَّى يَزُرَّنَكُمْ
 ٣٤- جَزَاءً وَشُكْرًا لَامِرِيٍّ مَا تَغْبِنِي
 ٣٥- أَخُو الْحَرْبِ مَا يَنْفَكُ يُدْعَى لِعَصْبَةٍ
 ٣٦- مُعَانَ بِكَفْيِهِ الْأَعْنَةُ أَشْعَلَتْ
 ٣٧- أَبَحَتْ حُصُونُ الْأَعْجَمِينَ فَأَمْسَكَتْ
 ٣٨- ضُرُوبُ عَرَاقِيبِ الْمَطِيِّ كَأَنَّمَا
 ٣٩- إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا فِرَاتُنَا
 ٤٠- فَإِنَّكَ حِصْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَإِنِّي
 ٤١- جَزَى اللَّهَ بَشْرًا عَنْ قَذُوفٍ بِنَفْسِهِ
 ٤٢- جَزَاءَ امْرِئٍ أَفْضَى إِلَى اللَّهِ قَلْبُهُ
 ٤٣- فَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُهُ لَكَرِيهَةٍ
 ٤٤- إِذَا وَزَنَ الْأَقْوَامُ لَمْ يُلَفَّ فِيهِمْ
 ٤٥- أَغْرُ عَلَيْهِ التَّاجُ لَا مُتَعَبِّسٌ
 ٤٦- إِذَا انْفَرَجَ الْأَبْوَابُ عَنْهُ رَأَيْتَهُ
 ٤٧- فَإِنْ يَكُ هَذَا الدَّهْرُ أَوْدَى نَعِيمُهُ
 ٤٨- فَمَا أَنَا مِنْ حُبِّ الْحَيَاةِ بِهَارِبٍ
 ٤٩- فَلَا تَجْعَلْنِي يَا ابْنَ مَرْوَانَ كَامِرِيٍّ
 ٥٠- يُبَايِعُ بِالْكَفِّ الَّتِي قَدْ عَرَفْتُهَا
- وَلَوْحَهَا تَشْحَاجُهُ وَصَلَاصِلُهُ
 عَلَيْهِنَّ ذِيَالٌ خَفِيفٌ ذَلَّالُهُ
 إِذَا لَانَ عَنْ طُولِ الْجِرَاءِ أَبَاجِلُهُ
 قَوَى أَنْدَرِيٍّ أَحْكَمَ الصَّنْعِ فَاتِلُهُ
 وَخُضْرًا مِنَ الْوَادِي رَوَاءَ أَسَافِلُهُ
 بَطِينِ الزَّبْيِ أَرْسَاغُهُ وَجَحَافِلُهُ
 أَغَانِيٍّ عُرْسٍ صَنْجُهُ وَجَلَّالُهُ
 وَيُوجِعُهَا صَوَانُهُ وَأَعَابِلُهُ
 إِلَى صُلْبِهَا جَاذِي حَصَاهُ وَجَائِلُهُ
 وَرُسْعُ آمِينَ لَمْ تَخْنَهُ أَبَاجِلُهُ
 إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهُ
 بِمَدْحَةٍ مَحْمُودٍ نَثَاهُ وَنَائِلُهُ
 إِذَا جِئْتُهُ نَعْمَاؤُهُ وَفَوَاضِلُهُ
 حَرُورِيَّةٍ أَوْ أَعْجَمِيٍّ يُقَاتِلُهُ
 لِكُلِّ عَدِيٍّ نِيرَانُهُ وَقَنَابِلُهُ
 بِأَبْوَابِهَا مِنْ مَنْزِلٍ أَنْتَ نَازِلُهُ
 يُبَارِي جُمَادَى إِذْ شَتَا وَيُخَايِلُهُ
 وَإِنْ شَهِدَ أَجْدَى فَيْضُهُ وَجَدَاوِلُهُ
 بِأَسْبَابِ حَبْلِ مَنْكُمُ مَا أَزَايِلُهُ
 عَلَى الْهَوْلِ مَا تَنْفَكُ تَرْمِي مَقَاتِلُهُ
 بِتَوْبَتِهِ فَانْحَلَّ عَنْهُ أَثَاقِلُهُ
 وَلَا مُسْتَقِلٌ بِالَّذِي هُوَ حَامِلُهُ
 كَبِشْرٍ وَلَا مِيزَانُ بَشَرٍ يُعَادِلُهُ
 وَلَا وَرَقُ الدُّنْيَا عَنْ الْحَقِّ شَاغِلُهُ
 كَصَدْرِ الْيَمَانِي أَخْلَصْتَهُ صَيَاقِلُهُ
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَضُّهُ وَزَلَّالُهُ
 مِنَ الْمَوْتِ إِنْ جَاشَتْ عَلَيَّ مَسَايِلُهُ
 غَلَّتْ فِي هَوَى آلِ الزُّبَيْرِ مَرَايِلُهُ
 وَفِي قَلْبِهِ نَامُوسُهُ وَغَوَائِلُهُ